الشيطان

لمى دى موباسان

بقلم الأستاذ محمد محمد مطاريد

كان الفلاح قائما بجانب — سرير المحتضرة — يتبادل الحديث مع الطبيب ، بينما عمدت العجوز فى استسلام ؛ متيقظة الوعى ، صمت لا يدور بينهما ! .. إنها تموت !

تقبلت العجوز هذه الحقيقة فى شئ من الرضاء منذ أن أتمت عامها الثانى بعد التسعين تعرف أن نهايتها قد أزفت

ومن خلال نافذة الحجرة تدفقت أشعة شمس يوليو الغائظة ، فغمرت أرض الحجرة السوداء الوعرة وأشاعت فيها قيظ الصيف . وأفاحت الريح الساخنة رائحة الأرض ، والقمح والدريس ، وأوراق الشجر الجافة

ورفع الطبيب صوته قائلا . .

إبنوربه ! لن تتمكن من أن تترك أمك بمفردها ؛ فربما تموت من لحظة إلى أخرى . .

فأجابه إبنوربه مذعورا :

— ولكن القمح فى الحقل ، ولابد من نقله إلى الداخل ، وربما يدوم رقادها مدة طويلة والجو الآن ملائم . فما قولك يا أماه ؟

وملك العجوز جشع الزمانديين ،

فأعربت عن موافقتها بإشارة من عينيها ، وإيماءة من رأسها . . تحث بهما ولدها ليعجل بنقل القمح . . وليتركها وحيدة تموت ! فلم يتمالك الطبيب نفسه وضرب الأرض بقدمه غاضبا ، ثم صرخ فى وجهه قائلا :

أنت وحش بلا قلب . وإنى لأمنعك من عمل أى شئ . فاهم ؟ وإذا كنت مصرا حقيقة على نقل القمح اليوم فلتذهب لإحضار الأم رابيت لتعنى بأمك . وإذا عصيتنى فسوف تموت كالكلب حين يأتى دورك وتسقط مريضا .. فاهم ؟

وعانى الفلاح عذاب التردد برهة مشتت الفؤاد بين خوفه من الطبيب وكراهيته لإنفاق النقود . ومضت برهة راح فيها يحسب ، ويقدر . . وأخيرا سأله متلعثما . .

— وكم تتقاضى الأم رابيت على ذلك ؟

فصاح الطبيب قائلا . .

— وكيف أعرف ؟ هذا يتوقف على المدة التى تريدها فلتتفقا فيما بينكما . . ولكنى أصر على أن تكون هنا فى خلال

ساعة فى احدى . وهم ؟ »

وأجابوا انتهى الأمر فأجابه :

حسن ! لاتغضب . وسوف أذهب الآن »

ولما خلا إينوريه بنفسه تلفت إلى أمه

ثم قال لها فى شىء من الاستسلام :

« إنى ذاهب لإحضار الأم رأيت

فالطبيب قد أمر على أن تأتى . فلاتقلق على

نفسك وسوف أعود حالا »

ثم غادر المنزل فى عجلة ظاهرة .

* * *

أما الأم رامت فهى عملة مرموقة

بين سكان وهى تعد من أهل القرية وجميع

من جاورها من القرى . فهى التى تدرجهن فى

كبائهن وهى سامرة كتفاحة آخر العام ،

شديدة الأخلاق ، حقود ، قد اشتهى ظهرها

حتى أصبحت حرباء . وكان ذلك من أثر

زوجها الذى لاتكف عن العمل فى الأكمان .

ويمكن أن يقول إن هناك جاذبية بينها وبين

الميت . . . يجتذبها يدور دائما حول من

شاهدت موتهم . . وجميع ما حصرته من

ألوان الموت . . بعض كل ذلك فى فاصيل

دقيقة لاتغيب أبدا . . كصائد يحدث عن

طلقات بندقيته .

وحين دلف إينوريه إلى داخل منزلها

ألفاها بين عمال الزهرة لبنات القرية ؛

يحيطها . . فأدارت له رأسها وهى

تقول . . .

« عيد . . سلامتك ! »

— أ . بخير . . إنها أمى . . .

— وماذا أصابها ؟

— تموت . . .

فأخرجت العجوز يديها من الماء

تجرى على سابعها يتساقط قطرات شفافة

زرقاء . . ثم سألته وهى تتظاهر بالعطف . . .

وهل حالتها سيئة ؟

يقول الطبيب إنها لن تعيش إلى

ما بعد الظهيرة . . .

إذن فهى فى حالة سيئة جدا

ولم يتورية على نسرعه . . . لم يكن

يبغى أن يكشف عما أضمره فى عقله مرة واحدة .

ولما عبر عن إصلاح الأمر الدفع قائلا . . .

وكم تريدين فى مقابل رعايتك لها

إلى أن تموت ؟ أنت تعرفين طبعا أننا لسنا

أغنياء . . نحن لا نحتمل أجر خادم .

وقد كانت أمى هى التى تقوم بالخدمة

فأجابته فى لهجة رجل الأعمال . . .

لدى سعران : فرنكان لليوم .

وفرنكان لليلة . . . ذلك طبعا للأغنياء . . .

وفرنك لليوم وفرنكان لليلة للآخرين . . .

وسأتى . . . ك أنت بثلاثة فرنكات لكل

يوم بليلته . . .

وفكر إينوريه لحظة . . . فهو يعرف

أن أمه فى حالة سيئة ... كما يعرف متانة بنيانها ... فربما تظل أسبوعا وعما عما قاله الطبيب ... وأخيرا انتهى إلى قرار ... فأجاب ...

— لا ... لا ... أفضل أن تطلبى عنا لإشرافك عليها حتى النهاية ... هى مقامرة لكل منا ... فالطبيب يقول إنها ستموت حالا ، فإذا ماوقع الأمر يكون ذلك فى صالحك بما أخبر أنا ! أما إذا تأخرت حتى الغد ... فإنى أربح بينما أنت تخسرين ...

فرمقته المرأة فى شئ من الدهشة ! فلم يحدث لها أن قامت بمثل هذا العمل فى شكل اتفاق محدد ... واستهوتها فكرة المقامرة ... بيد أنها خشيت أن يكون هناك فخ لها ... فقالت ...

— لا أستطيع الموافقة على شئ ما حتى أراها ...

— إذن فهيا معى ...

ومن ثم جففت يديها ونهضت على الفور ...

وفى الطريق ... أطبق الصمت عليهما فلم يبسا بكلمة ... هى تسير فى خطوات سريعة واسعة ... بينما كان الآخر يحجل فى قفزات متلاحقة كما لو كان يتخطى قنوات تعترض كل خطوة فى طريقه . ولما اقتربا من المنزل همس لإينوريه قائلا : «لعلها انتهت » ... بيد أن أمله الخائب كان بادیا فى نبرات صوته !

ولكن العجوز لم تمت ! بل كانت ممددة على ظهرها فوق سريرها المتآكل ، ويدها ممسكة بطرف اللحاف الأحمر ، مرهقة ضعيفة من أثر الروماتزم والعمل الشاق وجميع المهن التى قامت بها زهاء المائة عام

وأقبلت الأم رابيت على السرير ثم فحصت المرأة فى عناية تامة . قامت بنبضها .. وتحسست صدرها .. ثم أنصتت إلى تنفسها .. وسألتها عدة أسئلة لتسمع كلامها .. وبعد أن أمضت معها مدة طويلة غادرت الغرفة وخلفها إينوريه

لقد قر رأيها على أن المرأة العجوز لن تعيش حتى الليل

وسألها إينوريه .. « هيه ؟ »

فأجابت المرأة

— تنتهى حياتها فى خلال يومين أو ثلاثة .. وسأقبل المهمة فى مقابل سنة فرنكات دفعة واحدة .. فصاح فزعا :

ستة فرنكات ؟ ستة فرنكات ؟ هل هى صفقة مالية؟ ولقد قلت لك من قبل إن أمى لن تعيش أكثر من خمس أو ست ساعات

لبثت المساومة فترة طويلة ! فكلاهما عنيد .. وأخيرا نظاهرت الأم رابيت بالعودة إلى منزلها .

ولما كان الوقت بر والقمح لن ينتقل نفسه إلى الداخل ، فقد وافق أخيرا . وانطلق إلى قمحه الذى كان ملقى تحت أشعة شمس الحصاد الساطعة . . وذهبت المرأة إلى النزل ومعها حاجاتها . فقد تعودت أثناء رعايتها لمن يموتون أو من مانوا أن تعمل فى حياكة أشياء لها أو لهؤلاء اللاتى تقوم على رعايتهن . ومن ثم تتقاضى على ذلك أجرا آخر

وفجأة سألت المجوز مستفسرة :

— هل أدليت للقسيس باعترافك الأخير يا أم بانتام ؟ فهزت المجوز رأسها أن لا . والأم رايت ذات روح طيبة ! لذلك قفزت على قدميها جزعة وهى تصيح فيها :

— يا للسماء ! أحقيقة هذا ؟ سأذهب إذن فأحضر قسيسا

وأسرعت إلى منزل القسيس مهرولة مما جعل الأطفال فى ميدان القرية يوقنون أن حدثا ما قد وقع . وارتدى القسيس مسوحه ثم أقبل على الفور يتقدمه الشماس وهو يقرع جرسا صغيرا . . فرفع الفلاحون فى الحقل قبعاتهم ووقفوا صامتين حتى اختفوا خلف المزرعة . وتوقفت النساء عن جمع القش ثم رسمن علامة الصليب . وتفرقت الدجاجات مذعورة ثم أسرعت إلى مخابئها بين الحشائش بينما كان الشماس فى مسوحه الأحمر يسرع الخطى وخلفه القسيس يسير مطرقا . . يتلو صلواته . . وخلفهم الأم رايت منحنية الظهر إلى حد كبير كى تساعد نفسها على السير . ويداها مضمومتان على صدرها كما لو كانت فى الكنيسة

ولمحهم إنيوربه وهم يمرون أمامه من بعيد . . فسأل

لمن هذا القسيس ؟

فأجابه العامل الذى يساعده وقد كان أكثر إدراكا من سيده بأنه طعما فى طريقه إلى أمه ليباركها . . فلم يبد على الفلاح أى دهشة . . ثم واصل عمله

ورجع القسيس بعد أن أدلت الأم بانتام باعترافها وتركت المرأتين وحدهما فى الكوخ المطبق الخانق ، وعادت الأم رايت تنظر إلى المجوز وهى تموت ! وأخذت تسائل نفسها . . إلى متى تظل طويلا هكذا !

وأخذ الظلام يخيم رويدا . . رويدا . . وهبت نسمة باردة جعلت الصورة الزيتية الرخيصة تصطك بالحائط والستائر التى كانت يوما ما بيضاء ، وأمست فى لون القيران . . صارت كأنها تريد أن تطير بعيدا لكى تهرب إلى الأبد كروح المرأة المجوز !

وكانت العجوز ترقد بلا حراك . . عيناها مفتوحتان مستسلمتان فى انتظار الموت الذى يبدو وكأنه قريب جدا . ولكنه يتأخر ! وأنفاسها تخرج متلاحقة من حنجرتها التآكلة فتحدث ضجيجا كالصفير سوف يصمت عما قريب . وحينئذ سينقص من العالم امرأة لن يفتقدها أحد

ولما أقبل الليل عاد إينوريه .. وحين اقترب من السرير رأى أمه مازالت على قيد الحياة ؛ فسألها كعادته حين لاتكون فى صحة طيبة ..

— أماه .. بماذا تشعرين ؟

ثم صرف الأم رابيت على أن تعود فى الساعة الخامسة من مساء الغد .. وعادت فعلا فى الفجر .. وكان إينوريه يتناول عشاءه الذى أعده بنفسه قبل أن يخرج إلى عمله فسألته مستفسرة :

— هل مات أمك ؟

فأجابها وفى عينيه لمحة حقد أن لا .. ويبدو أنها تحسنت شيئاً ما .. ثم غادر المنزل وترك الأم رابيت تقترب وقد بدا القلق يظهر عليها .. فوجدت أن حالة العجوز لم تتغير .. تتنفس بصعوبة .. ممددة بلاحراك . عيناها مفتوحتان . ويداها مطبقتان على طرف اللحاف ! وهنا أيقنت المرأة من أنها قد تلبث هكذا يومين أو أربعة أيام وربما بقيت أسبوعا .. فعصر الخوف قلبها النحيل وأحست بغضب عميق على هذا الشخص الذى خدعها وعلى هذه العجوز التى يمكنها أن تموت ..

ومع ذلك عادت إلى عملها منتظرة وعيناها متعلقتان بوجه — الأم بانتام — المغضن .. وأقبل إينوريه ليتناول عشاءه .. وقد بدا مسرورا منشرح الصدر . وبعد الغداء غادر المنزل مرة أخرى . ومن المؤكد أنه كان وهو متعول فضحه فى الحقل فى حالة سرور ومرح ! بيد أن اليأس زحف إلى فؤاد الأم رابيت رويدا .. رويدا .. فكل دقيقة تمر عليها تبدو وكأنها قد سرقت منها ! فالوقت نقود ! وشعرت برغبة ما .. رغبة وحشية فى أن تمسك بهذه العجوز التافهة العنيدة .. بهذه الخرزة الهالكة ، من رقبتها ثم بضغطة واحدة عليها تقف هذه الأنفاس السريعة الضعيفة إلى الأبد .. ولكنها تذكرت أن هذه مخاطرة ! وفجأة خطر لها شيء ما .. فسألتها

— ألم ترى الشيطان بعد ؟

فهمهمت .. أن لا ..

وحينئذ أخذت المرضة تتكلم بنفس حكايات لتفزع عقل العجوز الهالكة أثناء موتها ..

قالت .. قبل أن تموت العجوز بعدة دقائق يظهر الشيطان لمن يموتون وفى يده مكنسة وعلى رأسه وابور المطبخ .. يطلق صرخات عالية ! وحين يظهر هكذا يكون قد انتهى كل شئ ولا يبقى لمن يموت سوى بضعة دقائق . ثم أخذت تعدد جميع من ظهر لهن الشيطان فى حضرتها هذا العام .. جوزفين لوازيل . . إيلى راتيبه . . سوفى بارفيه . . وسيرافين جوزيبه . . فارتجفت الأم بانتظام بشدة ثم أخذت تتقلب فى سريرها .. تحرك يدها من ناحية إلى أخرى .. وتحاول أن تدير رأسها لكى تحدق فى آخر الغرفة !

وفجأة توارت الأم رابيت خلف السرير ثم أخرجت من صوان الملابس قطعة قماش لفتها حول جسدها وعلى رأسها وضعت الوابور ثم أمسكت بمكنسة فى يدها اليمنى ، وبيدها اليسرى أمسكت بدلو أخذت تحركه فى الهواء لكى يحدث ضوضاء .. ثم أخذت تطلق طنينا مفزعا وهى تضرب بقدمها الأرض .. ثم اعتلت الكرسى وبدأت تروم وتطلق صرخات حادة فرجف الدلو الذى كانت تخفى فيه وجهها .. ثم أخذت تهدد الفلاحة العجوز بالمكنسة تماما كما كان يعمل الشيطان فى تمثيلية شاهدتها مرة ما ...

وبقوة فوق طاقة الجهد الإنسانى حاولت الأم بانتظام وقد تملكها جزع فظيع أن تنهض وتفر . . فلم يرتفع سوى كتفيها وصدرها قليلا ثم سقطت فى مكانها وهى تطلق شهقة مكتومة ونامت إلى الأبد !

وفى هدوء واطمئنان أعادت الأم رابيت كل شئ إلى مكانه . . المكنسة فى الركن بجانب الصوان ، وقطعة القماش فى داخله .. والوابور على الرف . . ثم ألصقت الكرسى بالحائط . . وألقت بالدلو فى المدفأة . . وبعد ذلك قامت إلى العجوز فأطبقت عينيها المفتوحتين ثم وضعت إناء فوق السرير سكبت فيه بعض الماء المقدس وغمست غصن البقس الذى كان معلقا على الدولاب . ثم ركعت فى حماس وإخلاص وبدأت تنشد للميتة صلواتها . .

وفى المساء لما عاد إينوريه إلى منزله وجدها تصلى . . وفى الحال بدأ يحس أنها فوجد أنها استولت منه على فرنك ! لأنه قضت ثلاثة أيام وليلة واحدة .. أى خمسة فرنكات .. بينما اتفق هو معها على أن يدفع لها ستة

محمد محمد مطاوع